مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ISSN : 1112 -7163 E-ISSN: 2588-1892
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2

الفكر الصوفي الجزائري من منظور الكتابات الإستشراقية الفرنسية

Algerian Sufi thought from the perspective of French Orientalist writings

سالم بوتدارة

جامعة أحمد دراية –أدرار، salem2900@gmail.com

تاريخ الاستلام: 14-03-2021 تاريخ القبول: 08-10-2021

ملخص –

تعددت الدراسات الاستشراقية واختلفت باختلاف مدارسها وتوجهاتها، وتعتبر المدرسة الاستشراقية الفرنسية من أكثر المدارس اهتماما بالتراث العربي والإسلامي، وانشغالا بالبحث فيه، وقد نال تاريخ الجزائر العريق وتراثها المتنوع اهتماما بالغا من مستشرقي المدرسة الفرنسية خاصة بعد احتلال الجزائر سنة 1830م، حيث انكب أولئك المستشرقون على التراث الجزائري يترجمون منه ويكتبون عنه، فشملت كتاباتهم مجالات شتى، كالشرع وعلومه، والمجتمع وأحواله، والتصوف وطرقه...

وتهدف هذه الدراسة إلى رصد طبيعة الكتابات الاستشراقية الفرنسية حول التصوف في الجزائر، ومن ثمة إبراز أوجه الشبه والاختلاف في نظرَات المستشرقين الفرنسيين للفكر الصوفي الجزائري.

الكلمات الدالة –

الجزائر؛ الاستشراق الفرنسي؛ التصوف؛ الطرق الصوفية؛ الزوايا.

المؤلف المرسل: سالم بوتدارة، salem2900@gmail.com

Abstract-

Oriental studies varied and differed according to their different schools and orientations, The French Oriental School is considered one of the schools most concerned with Arab and Islamic heritage, The history of Algeria and its varied heritage gained great attention from orientalists of the French School, especially after the occupation of Algeria in 1830 AD, As those orientalists devoted themselves to the Algerian heritage, translating from it and writing about it. Their writings included various fields, such as Sharia and its sciences, society and its conditions, Sufism and its methods...

This study aims to monitor the nature of the French Orientalist writings on Sufism in Algeria, and from there, highlight the similarities and differences in the French orientalist views of Algerian Sufi thought.

Key words -
Algeria; French Orientalism; Sufism; Sufi orders; Zawaya.

1. - مقدمة

شكّلت كتابات المستشرقين ونتاجاتهم العلمية والأدبية عن الشرق الاسلامي مادة خصبة للمؤرخين والباحثين في مجال الدراسات الاستشراقية، كما أدت المدرسة الإستشراقية الفرنسية دوراً مهماً في هذه الدراسات.

وتحاول هذه الدراسة تجاوز النمطية المتمثلة في الوقوف -في قراءة تلك الكتابات -عند حدود تصنيفها ضمن الكتابات الكولونيالية التي أولت كبير الاهتمام لظاهرة التصوف والطرقية بالجزائر، والانكباب على تجريح جملة من المقولات درج الدارسون الغربيون على تأسيس أطروحاتهم عليها، لتصل (الدراسة) إلى إعادة قراءة تلك الكتابات الاستشراقية انطلاقاً من مساءلة مظانها، وما تنطوي عليه من خصوصيات، ثم اعتماد مداخل علمية متنوعة لفهم واقع الصوفية والتصوف بالجزائر عبر أطروحات ذات وجهات نظر متعددة.

وسترصد هذه الدراسة – عن طريق المنهج التاريخي وأدواته -إجابة مقتضبة عن إشكالية محورية تتعلق أساسا بطبيعة الكتابات الاستشراقية الفرنسية حول التصوف الجزائري؟، والتعرف على أهم وجهات النظر المتباينة أحيانا، والمتفقة أحايين أخرى حول مقومات الفكر الصوفي الجزائري.

2. - لمحة عن مفهوم الاستشراق وبداياته

تكاد تتوحد المفاهيم الدالة على الاستشراق والمستشرقين من حيث مجال الاهتمام، بينما تتباين من حيث شمولية المصطلح، فمالك بن نبي يجعله مقتصرا على فئة الباحثين والكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر والحضارة في الإسلام (بن نبي، 2002، 167) ، بينما إدوارد سعيد يجعله أكثر شمولية، حيث يضم كل من الشعراء والروائيين والفلاسفة والمنظرين السياسيين والاقتصاديين والإداريين من مواطني الدول الاستعمارية الذين يتبعون أسلوبا في الفكر والسلوك يقوم على التمييز بين الشرق والغرب بوصفه نقطة انطلاق لسلسلة من النظريات والملاحم والروايات والأوصاف الاجتماعية والمسارد السياسية التي تتعلق بالشرق وسكانه وعاداته. (إدوارد، 2003، 37)

والباحث في مفهوم الاستشراق سيقف أمام تعاريف كثيرة ومتعددة، تضيق أحيانا لتقتصر على عناصر محددة، وتتسع أحايين أخرى لتكون أكثر شمولية، لذا يمكن الجمع بين تلك التعاريف استنادا إلى طبيعة القاسم المشترك بين الشرق والغرب، فللشرق تراث وفي الغرب من درسوا بعض ذلك التراث، وما دام ذلك التراث المشرقي يعرف بالتراث الإسلامي، فاستشراق الغربيون هو اشتغال غير المسلمين بعلوم المسلمين، بغض النظر عن وجهة المشتغل الجغرافية وانتماءاته الدينية والثقافية والفكرية.

أما عن بدايات الاستشراق فمن المؤكد استحالة تحديدها بتاريخ معين، بينما يمكن حصرها في فترة تاريخية معلومة، استنادا إلى أول تواصل بين الشرق والغرب، والباحث في كرونولوجيا ذلك التواصل يجد معالم تاريخية متعددة، فهناك من أرجعها إلى غاية القرن السادس قبل الميلاد على عهد الكنعانيين، حيث بدأ اليونانيون والإيرانيون صلاتهم التجارية والثقافية بالعرب (الرماني، 2010، 218) ، بينما يرجعها آخرون إلى فترة ازدهار الحضارة الإسلامية بالأندلس، حيث استقطبت العديد من طلبة العلم الغربيين والكثير من رهبانهم الذين انتسبوا لمدارس المسلمين هناك، فأتقنوا العربية وتعرفوا على تراث المسلمين، فترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، ونشروا تراث المسلمين في بلدانهم المسيحية. (السباعي، 1979، 13)

ويؤرخ لبدء تواجد الاستشراق الرسمي في الغرب بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312م، القاضي بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون وسلامانكا. (مناد، 2005، 153)

ويبدوا أن الاستشراق قام في البداية على جهود فردية لم يكن لها تأثير ذا بال على مجرى التفكير الغربي، لكن تغير ذلك الوضع إثر القرار الكنسي 1312م – الآنف الذكر – وما سبقه من حدث مهم في تاريخ الإستشراق على حد تعبير المستشرق الألماني رودي بارت Rodi Paret الذي يقول: ".. إذا نظر المرء إلى الوراء إلى تاريخ الاستشراق فإنه يستطيع أن يقول أن بدايات الدراسة العربية الإسلامية من الغرب ترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ففي سنة 1143م تمت ترجمة القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة اللاتينية (بدوي، 1993، 110)، بتوجيه من الراهب بطرس المحترم رئيس دير كلوني، وكان ذلك على أرض إسبانية" (الشرقاوي، د.ت، 25).

ومع بدايات الفترة الحديثة وما رافقها من بداية تغير موازين القوى ومعايير السبق الثقافي بين الشرق والغرب، لم يعد الأوروبيون ينظرون إلى الإسلام بوصفه منافسا جدّيا في ميدان العقل والعلم (جورافسكي، 1996، 45)، حتى أن مارتن لوثر تهكم على تصورات القرون الوسطى الأوروبية حول الإسلام، وقدم لتأييد وجهة نظره هذه نماذج مما أسماه خرافات الأوروبيين وجهالاتهم حيال الإسلام، ولكن ما إن اقتربت الجيوش العثمانية سنة 1529م من فيينا حتى تغيرت تلك اللهجة فأصبحت أكثر عدائية وحدّة، وانبعثت القوالب القروسطية مركزة على وصف الإسلام بأنه دين العنف. (جورافسكي، 1996، 97)

وهكذا بدأ الإستشراق بدراسة اللغة العربية والإسلام، ووصل بعد التوسع الاستعماري الغربي في الشرق إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وحضاراته ولغاته وتقاليده وجغرافيته. (تركي، 2019، 21)

وقد عنيَ المستشرقون بتحقيق كثير من المخطوطات العربية الدينية والأدبية والتاريخية، وترجمتها إلى عديد اللغات، ودراسة العلوم العربية الإسلامية والتصنيف فيها مثل: القرآن وعلومه، النبي محمد صلى الله عليه وسلم والسنة النبوية، الفقه، علم العقائد، الملل والمذاهب والفرق، التصوف،

الحضارة الإسلامية، العلوم والصناعات، الآداب والفنون، اللغة العربية وعلومها، التاريخ الإسلامي، المعاجم، الشعوب والأنساب والسلالات، الخلفاء والملوك والأمراء، الإسلام وسائر الأديان، الجغرافيا. (العقيقي، 1964، 7 -8)

3. -نشأة الإستشراق الفرنسي وتطوره

إن العلاقة بين فرنسا والشرق بدأت منذ عهد متقدم، حين غزا العرب مقاطعات منها، فنتج عن ذلك صدام وعي كل طرف بالآخر، خاصة وعي الغرب ممثلا في فرنسا اتجاه الوجود العربي الإسلامي، وبعد أقل من خمسين عاما على موقعة بلاط الشهداء حدثت موقعة "رونسيفو" سنة 778م بين المسلمين والفرنسيين الذين كان يقودهم رولاند ابن أخ الإمبراطور شارلمان (درويش، 2004، 18) ، وهكذا وجدت فرنسا نفسها في مواجهة الزحف الإسلامي العربي باعتبارها بوابة لباقي أوروبا، وكان لتصديها لهذا الزحف أثر قوي ليس في فرنسا وحدها بل في كل أوروبا، حيث أصبح شارل مارتل بطلا وأصبحت فرنسا حامية للمسيحية كلها ورمزا للتضحية في سبيل الكنيسة، وبما أن الوجود العربي الإسلامي قد فرض نفسه على الجميع، فقد كان من تحصيل الحاصل أن يحدث تقارب من نوع خاص بين فرنسا والغرب من جهة والمشرق الإسلامي من جهة أخرى، وقد كان لاستقرار المسلمين الفاتحين في المدن والقلاع الفرنسية الواقعة أغلبها في الجنوب، واحتكاكهم بأهلها جعل ذلك التقارب أكثر إمكانية وأكثر أمانا، خاصة وأن النموذج الحضاري العربي حاز على إعجاب واستحسان كثير من الأقليات العرقية التي كانت تعيش تحت حكم الإفرنج خلال ولاية شارل مارتل نفسه (العياشي، 2015، 50).

والدارس لما كُتب عن الإستشراق تستوقفه أسماء كثيرة لمستشرقين فرنسيين يصنفهم الباحثون في طليعة من اهتموا بالدراسات عن الإسلام وقضايا المسلمين، ومن هؤلاء الرواد ذوي الأصل الفرنسي غليوم بوستيل (505–581م)الذي كان جادا في تعلم اللغات الشرقية وفي مقدمتهم العربية، وجيرار دي أرليان (938 - 1003م) الذي حاول أن يتعرف على العالم الإسلامي وينقل معرفته إلى بلاده. (سمايلوفيتش، 1998، 60)

وبالوصول إلى الفترة الحديثة وتغيّر موازين القوى لصالح الغرب وانعكاس ذلك على حركة الإستشراق هناك، يرى بعض الدارسين أن حملة نابليون

بونابارت على مصر سنة 1798م كانت إيذانا بانطلاق موجة استعمارية على بلدان العالم الإسلامي (خرشي، 2013، 32)، راهنت فيها فرنسا والدول الغربية على مستشرقيها مراهنة تكاد تساوي نظيرتها على الجيوش والأساطيل العسكرية.

لكن فشل تلك الحملة على مصر، جعل فرنسا تولّي وجهها شطر البلدان المغاربية، ولأن المستشرقين كانوا طلائع الاستعمار، فقد كان اهتمامهم بالجزائر قبل أن تطأ أقدام المستعمرين أرضها، وتجلى ذلك في كتابات العديد منهم كـ"ديفونتين" و "بيسونيل" و فانتور دي بارادي" و "دي ساسي" الذي يعده البعض (أبو الاستشراق الفرنسي)، ومنشئ علم الاستشراق في أوروبا، وهو الذي كتب بيان الحملة الفرنسية على الجزائر ووزعه الفرنسيون بالعربية على أعيان مدينة الجزائر عشية الاحتلال سنة 1830. (هلايلي، 2014، 313)

وبعد توغل الاستعمار الفرنسي في الجزائر، شرع المستشرقون الفرنسيون في حركة الترجمة والتأليف، واعتبرت هذه المرحلة هي المرحلة الأولى من مسيرة الاستشراق في الجزائر والتي امتدت من سنة 1830 إلى غاية 1879م وفيها اشتغل المستشرقون زيادة على التأليف والترجمة (يحياوي، 2014 -2015، 52)، أن أطروا ما عُرف بحلقات أو كراسي اللغة العربية، وأسسوا الجمعيات الاستشراقية واللجان العلمية (معيريش، 2003، 29)، لتليها المرحلة الثانية (1879 – 1930م) التي تميزت بتوسع نشاط المستشرقين الفرنسيين، وذلك بإنشاء مدارس جديدة لتعلّم اللغة العربية كمدرسة الآداب (ساسي، 2002، 100)، وعقد مؤتمر الاستشراق الرابع عشر سنة 1905م بالجزائر، أما المرحلة الثالثة وهي التي اتسمت بالنشاط المكثف والتوسع الكبير لدائرة الاستشراق الفرنسي بالجزائر وذلك بإنشاء المعاهد المتخصصة على غرار معهد البحوث الصحراوية ومعهد الدراسات الشرقية. (سعد الله، 2009، 102/6)

والمتتبع تفاصيل ما سبق ذكره عن الاستشراق الفرنسي يلحظ أنه يمتاز بالتخصص، إذ تخصص كل واحد من رواده في جانب معين من جوانب البحث والدراسة، وهو ما يجعلنا نميزه عن غيره بسبب بعض الملامح التي اتسم بها عن باقي مدارس الاستشراق الأخرى، وهذه الملامح تتجلى في تمركزه على ثلاث محاور أساسية، هي المحور الديني والسياسي والاستعماري، وإن كان الأخير

أكثر شمولية من حيث التخصصات العلمية والأدبية، وفي غالب الأحيان يكون المحوران الأولان في خدمته.

وبالرجوع إلى المحور الديني يستوقفنا حجم الاهتمام الذي أولاه الفرنسيون للتعرف على تفاصيل الجوانب الدينية للجزائر كالإسلام الطرقي والزوايا الصوفية وما يرتبط بهما كالصلحاء والمشيَخة والمريدين، ويستوقفنا أيضا العدد الكبير للدراسات المتعمقة للمعتقدات الدينية ورصد الطقوسيات الصوفية، التي ما فتئت تلهم أولئك الباحثين على اختلاف مشاربهم، مبشرين كانوا، أو بعثات عسكرية، أو جامعيين من أمثال :لويس رين (Louis Rinn)، ألفريد بيل (Alfred Bel) ، إدموند دوتيه (Edmond Doutté)، كورناي ترومليي (Corneille Trumelet)، إ .درمانجوم (Dermenghe Emile)، جاك بيرك (JacquesBerque)أو فاني كولونا (Fanny Colonna)، فألفوا في ذلك تآليف غزيرة تعددت من ورائها أهدافهم وغاياتهم، وهو ما سنحاول رصده لاحقا.

4. - طبيعة الكتابات الاستشراقية الفرنسية حول التصوف في الجزائر

إن مختلف الانتاجات العلمية في الجزائر حول التصوف خاصة خلال الفترة الاستعمارية، تؤكد على اهتمام كبار المفكرين والمستشرقين بهذا المجال، فنجد أن تلك الأعمال كانت في غالبها تصب في التعريف بالتصوف كمرحلة أولى، وتتبع تطوره و بداياته خاصة في الجزائر ثم ربطه بالتصوف الأندلسي الى غاية الوصول الى تبلور الطرقية وفروعها وأهم شيوخها، ثم تركز على العلاقة التي كانت تربط تلك الطرق وأتباعها بالنظام السياسي العثماني، ولا تخرج مختلف الدراسات الغربية خاصة الفرنسية منها على تسويق الخطاب المعادي والثائر الذي يصدر من شيخ الطريقة واتباعه ضد العثمانيين، و بذلك إعطاء صورة ناقمة على الوضع قبيل الاحتلال، و بذلك عرفت دوائر الإستشراق والجمعيات العلمية كيف تصنع صورة مسبقة عن التصوف أو الصوفي في الجزائر، خاصة إذا ما قلنا تسويق النمطية الشائعة حول المتصوفة أنهم يؤمنون بالخوارق والغيبيات والأمور الغريبة، وفي الجانب الآخر كانت هناك دراسات اهتمت بالفكر الصوفي العلمي الذي تركه المتصوفة وحاولت تلك الدراسات أن تعطينا الوجه المغاير للصوفي. (بوحلوفة، 2017، 182)

والمجلة الإفريقية التي تعتبر لسان حال الجمعية التاريخية الجزائرية التي هي بدورها يد فرنسا العلمية، ومن الممكن القول أن الدراسات التي تناولت نشاط الطرق الصوفية ورجال التصوف في المجلة كانت كثيرة وممنهجة لمعرفة أكبر كم من المعلومات حولها لتجنب ثوراتها مستقبلا ضد الوجود الاستعماري الفرنسي، حيث نجد في العدد 1881 و 82 و83 و 84 دراسة مستفيضة حول الشريف بوبغلة وعلاقته بالطرق الصوفية وكيف كانت بدايات ثورته وهذه الدراسات تناولت بالطبع الجانب السياسي للطرقية وهناك اشارة ايضا لعلاقة المرابطين واصحاب الزوايا الذين كانوا خزان للجهاد والثورات.

جدول1: أهم الدراسات الواردة في المجلة الإفريقية حول الطرق الصوفية بالجزائر:

المؤلف	عنوان الدراسة	سنة النشر	المجلد والصفحة
Berbrugger(A)	Un Cherif Kabyle en1804	1858	المجلد رقم 3 ص 209 - 214
Devoulx (A)	Expédition d'Oreilley d'après Un document Turc	1858	المجلد رقم 3 ص ص 436 - 441
Devoulx (A)	Notes Historiques Sur Les Mosquées et Antres édifices Religieux d'Alger	1859 1860	المجلد رقم 4 ص ص 471 - 467
Gorguos(M)	Bou ras Historien Inedit de l'Afrique Septentrionale	1861	المجلد 5 ص ص 114 - 124
Arnaud	Histoire de Louai Sidi Ahmed Etidjini	1861	المجلد 5 ص ص 93 - 113
Devoulx (A)	Historiques sur Notes Les Mosquées et Autres Religieux d'Alger	1861	ص ص 59 - 70
Adrien(D)	Résume Historique Sur Le Soulèvement des Derk'aoua	1874	المجلد 18 ص ص 38 - 58

المصدر: رحموني عبد الجليل (2015)، اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر، د.ن، 35.

ونتيجة للانتشار الواسع للطرق الصوفية وتأثيرها في المجتمع، سواء في المجال السياسي أو الديني دفع السلطات الفرنسية إلى التتبع والبحث والتحري عن هذه الجماعات، وإرسال تقارير عسكرية من أجل التعرف على عمقها، لاستمالتها أو في غالب الأحيان محاربتها، فمن عوامل استقرار البلاد وجَب

تهدئة الأوضاع بإخماد الثورات من خلال دراستها وإظهار الخطر المرتقب منها والبحث عن محرضيها.(RINN, 1884, 6)

وقد دفع الاهتمام الكبير بالتصوف والمتصوفة السلطات الفرنسية إلى انجاز دراسة شاملة للطرق الصوفية عام 1951م بعنوان "الزوايا في الجزائر"، والتي أعدتها مصلحة اتصالات شمال إفريقيا بحكومة الجزائر العامة، وكانت تقوم بإرسال تقارير حول الزوايا في شكل وثائق محكمة في غلاف مكتوب عليه عبارة "سري"، فاحتوت الدراسة على الجانب السياسي للزوايا والطرق الصوفية وموقفها من فرنسا، كذا العلاقة فيما بين الطرق الصوفية، إذ ترى في نفوذهم حاجزا مانعا لوصولها إلى عامة الجزائريين، والذي يجب إزالته مثلما أُزيل نفوذ الأسر الكبيرة في الأقاليم المختلفة. (شلالي، 2006، 110 -111)

ومن جانبها قامت كلية الآداب بالدور الرئيسي، حيث ظهر الارتباط الدقيق بينها وبين إدارة الاستعمار، وبالأحرى بين الإدارة والاستشراق، يقول المستشرق هنري باصيه (Henri Basset) عن أهمية الأعمال المقدمة: "إن المجالات التي عالجها المستشرقون (يسميهم المستعربين) في الجزائر خلال رحلتهم هي: المعاجم واللسانيات والخطوط، والتاريخ الديني، وتحقيق وترجمة النصوص الأدبية والتاريخية والجغرافية والفقهية والعلمية، ثم الدراسات الإثنوغرافية والفلكلورية والكتب المدرسية. (هلايلي، 2015، 143)

هذه الجهود البحثية كان للعسكريين وضباط المكاتب العربية الدور الفعال فيها، فهم المؤرخون الرسميون لأغلب مراحل الغزو الفرنسي للجزائر، وقد استعملوا معارفهم الخاصة ومعرفتهم الجيدة للغة العربية وحتى اللهجات البربرية، وكانوا مهتمين بجمع كل ما يأتي في طريقهم من معلومات وآثار ونقوش من منطلق استكشاف الجزائر العلمي، والبحث في أسرار المجتمع، لكن نشاط أولئك الدارسين وطبيعة كتاباتهم تبرز أنها جاءت لخدمة السياسة الكولونيالية.

ولذلك فإن أغلب الدراسات التي تمت على يد كتاب فرنسيين، تعتبر دراسات مغرضة، فهي تخدم الاستعمار الفرنسي، حيث أخضعت منهجية التاريخ ومتطلبات البحث إلى واقع الاحتلال ومرامي السياسة الاستعمارية. (هلايلي، 2009، 9)

5. - نماذج من نظرَات المستشرقين الفرنسيين للفكر الصوفي الجزائري

إذا كانت جلّ الانتاجات العلمية الفرنسية حول التصوف أخذت طابع السرد لتاريخ الطرقية في الجزائر، فإن الحديث حول الفكر الصوفي لم يأخذ نصيبه من تلك الدراسات وهذا نتيجة لعامل الزمن الذي فرض على الباحثين فهم تلك الطرق أولا، ثم تحليل سيرها داخل المجتمع، إضافة الى كون الأبحاث لم تخرج عن طابع العمالة للإدارة الفرنسية التي سخرت مختلف الوسائل لفهم طبيعة المتصوفة والطرقية، وهو ما ولّد حوصلة شاملة عنها، لكن بعد انتهاء الاستعمار وعملية الانفتاح على الآخر في القرن العشرين تولد عن ذلك نظرة متأنية للفكر الصوفي الروحي المبني على الوصول الى الله، والعمل على جانب روحاني خفي غير ظاهر تعبر عنه الكتابات الأجنبية بالجانب الروحي للإسلام.

ومن الممكن القول أن الكتابات الأجنبية عموما والفرنسية خصوصا مرت بمرحلتين في نظرتها للفكر الصوفي، الأولى ميزته نظرة سطحية شمولية على أن التصوف أو الفكر الصوفي لا يعدو أن يكون مزيج من الترسبات المتراكمة لأفكار يصعب على الإنسان فهمها و بذلك بقي حبيس المادة، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة تأمل ودراسة موضوعية للفكر الصوفي خاصة الفلسفي منه وإعطاءه حقه، كونه يصنع من الإنسان ذلك المخلوق القادر على تجاوز الواقع المتشعب الى سمو روحاني عالي أساسه الرجوع الى الخالق وهو ما عبر عنه ابن عربي في إنسان الله. (بوحلوفة، 2017، 197)

بإلقاء نظرة استنتاجية لبعض ما كتبه الفرنسيون عن التصوف الجزائري، سنقف على وجهات نظر تتفق حينا وتتباين أحايين أخرى، ولربما يرجع سبب ذلك التباين إلى زوايا الدراسة المختلفة التي تناول بها أولئك الدارسون التصوف الجزائري، فدراسة إدموند دوتيه Edmond Doutté (1867 - 1926)، ومن خلال قراءة مؤلف" سحر ودين في شمال أفريقيا"، نفهم أن دوتيه يرى مظاهر التصوف هي وليدة الظواهر الدينية، التي تتميز عن غيرها من الظواهر الأخرى، بقوتها الإلزامية، حيث تفرض المعتقدات والممارسات نفسها على المؤمنين والمريدين معا، وتجازى هذه الواجبات من قبل القوى الدينية، عن طريق الرأي العام(الأخلاق) والدولة(القانون)، وفي بعض الأحيان قد يظل

المعتقد إجباريا والممارسة محرمة (الشعوذة)، لكن في المجتمعات البدائية، فإن الفرد لا يتميز سوى قليلا عن المجموعة، بحيث لا يتمكن من التفكير والفعل، بخلاف أمثاله :ينجم عن ذلك، أن تتسم كافة الظواهر الاجتماعية بالطابع الإلزامي ذاته، أي الديني، هكذا عند سكان شمال أفريقيا، فقد ارتبطت القبائل كلها ببعض القديسين المسلمين (المرابطين والأولياء)، حيث تخلت عن أسمائها مقابل اسمه، فتحولت بذلك إلى أولاد سيدي فلان، الخ. (DOUTTE, 1909, 217) من جهة أخرى، فقد اكتسحت الحركة المرابطية تقريبا، كامل الحياة الزراعية :ترتبط الأسواق بشكل وثيق بالمواسم، بينما يسهر على إدارة شؤون المدارس رجال الدين الأولياء، فكل حياة القرية معلقة بحركات وأقوال المرابط :فقد دخلت الجمعيات الإخوانية في الأخير، الدواوير الأكثر نائية وضمنت للإسلام بالكامل قوة وتماسكا، لم تتمكن المؤسسات السياسية، من توفيره له. (دوتي، 2014، 112)

وإذا كان "دوتيه" يرجع التصوف ومظاهره إلى تشعبات المعتقدات الدينية، فإن (ألفريد بيل Alfred Bel) جعل من هذه الرؤية مجرد جزئية من إشكالية محورية لم تكتمل إجابتها عنده، تماما كمؤلَّفه الذي لم يكتمل، وتتعلق تلك الإشكالية بكرونولوجيا الأصل، لما سماه بظاهرة التصوف الديني، إذا ما كان السبق للمنبع المحلي أم الإضافة المشرقية، هل هي بقايا قديمة أم أفكار إسلامية حقيقية(Alfred, 1909, 215)، والتي لا نزال نفتقر لأجل حلها حتى الآن إلى ترسانة المعدات اللازمة.

وفي مقدمة كتابه يقدم لنا "س .تريملي Corneille Trumelet"

(1817 – 1892م) وصفا مقتضبا عن ظاهرة التصوف والقداسة في الجزائر خصوصا وشمال أفريقيا عموما، حيث يرى أنهم ينتسبون إلى الفئة المعروفة في الجزائر باسم" المرابطين"، وهي العبارة المشتقة من الفعل العربي" ربط"، الذي يعني :ربط، إبقاء، حبس، ربط وثاق"، ويحمل لفظ" مرابط "المعنى الديني تماما، فالمرابط هو الإنسان الذي يلتزم في التقيد بمبادئ القرآن: إنه الحافظ للشريعة الإسلامية، في كل تمامها، إنه في الأخير الإنسان الذي تقربه في السابق تحديدا الصلاة والأعمال الخيرية، حياة الزهد والتأمل من الله، لأن الديانة الإسلامية لها أيضا متصوّفوها، نساكها ورهبانها ومعتزلتها، وأن

التقشف والمعاناة وكبح الشهوات هي الصفة الغالبة، عند الأولياء الذين يعتزلون الحياة الاجتماعية في :الجبال، السواحل والصحارى. (Trumelet, 1892, 162)

ويلخص الطبيب "مارسيل كاري Marcel Carret" -من وجهة نظره المتأثرة بصداقته مع الشيخ العلاوي - نظرة الأوروبيين عامة لرجال الدين والطرقيين في الجزائر بقوله: ".. فالأوروبيون في شمال إفريقيا يجهلون جهلا تاما تأثير الإسلام على نفوس أهله بدرجة تجعلهم ينظرون إلى كل شيخ أو مرابط على أنه مشعوذ لا وزن له ولا أهمية، إلا بقدر ما يمكن أن يكون له نفوذ سياسي". (مارسيل، 1987، 9)

الرأي نفسه يذهب إليه "لويس رين Louis Rinn" صاحب الكتابات المهمة عن التصوف والمتصوفين في الجزائر، مؤكدا على أهمية الطرق الصوفية، حيث أراد من خلات كتاباته أن يثبت الدور المهم والتأثير الكبير الذي تقوم به الطرق الصوفية ورجال الدين على الأهالي، ولقد كان من بين الكتّاب الذين يريدون إعانة السلطة الإستعمارية بإطلاعها على خبايا الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر، حيث كتب سنة 1882: "ليس كل الزوايا عدوة لنا، ومن السياسة حماية وتشجيع البعض منها".(RINN, 1882, 37)

ومن منظور تكاد تشترك فيه الدراسات الإستشراقية الفرنسية، يقرّ الباحثان والمترجمان العسكريان "دبون وكوبولاني Depont et Coppolani" في مقارنة بين الطرق الصوفية الإسلامية والمنظمات المسيحية، أنّ هناك (تشابه كبير) بين الزاوية والدير. (Depont et Coppolani, 1897, 247)

ويذهبا إلى حد القول أن المجتمعات الطرقية تعيش في (رسولية مستمرة) يمثلها شيوخ الطرق والأولياء والشرفاء وأتباعهم. (Depont et Coppolani, 1897, 20)

هذه الرؤية الضيقة لهذين الباحثين والكثير من أمثالهم، هي التي جعلت كتاباتهم ترى في التصوف الإسلامي وطرقه مجرد طقوس ذات ممارسات مجردة كتلك التي يمارسها الرهبان في الكنائس، وهي كذلك تعبر عن السطحية في فهم عُمق التصوف الإسلامي الذي يستعصي فهمه حتى على المتصوف المبتدئ ذاته، تلك السطحية في دراسة التصوف بالجزائر جعلت كثير من المستشرقين

الذين تناولوه بالدراسة يصعب عليهم التفريق بين اتجاهي التصوف السني – المنتشر بالجزائر - والتصوف الفلسفي في الديانات الوضعية الذي اختلط بنظريات فلسفية تبناها بعض مفكري الغرب ونسّاكهم، وانتشرت في الغرب المسيحي.

6. - خاتمة:

خلاصة ما تقدم أن الكتابات الإستشراقية الفرنسية حول التصوف بالجزائر، في نظر الباحث المحايد المتمعن، قد أسهمت في نشر كمّ معتبر من التراث والدراسات حول التصوف والطرق الصوفية في الجزائر، وخلّفت جراء ذلك مردود ضخم من المعلومات والمناهج التي أخرجت التراث الجزائري الصوفي بحلّة معاصرة للدراسات الأكاديمية المستحدثة في شكل كتب مطبوعة، أو مقالات في المجلات، أو مداخلات في المؤتمرات، لكن نتيجة تبني الإدارة الفرنسية الإستعمارية مشروع تلك الدراسات حول الجزائر ودعمها لها، جعل أكثر الدارسين منضوين تحت إمرة الجيش الفرنسي مترجمين وباحثين وإداريين، الأمر الذي صبغ معظم دراساتهم بطابع لا يكاد يخرج عن فلك الأهداف والغايات التي رسمتها الإدارة الإستعمارية، وهو ما جعلها -تلك الدراسات -في معظم الأحيان تفتقر للدقة والموضوعية ، وتغلب عليها النظرة الإستعلائية، والإيديولوجية العدائية.

المراجع

المراجع باللغة العربية

- إدموند دوتي (2014)، الصلحاء مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن 19، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، المغرب.
- إدوارد سعيد (2003)، الاستشراق (المعرفة – السلطة – الانشاء)، ترجمة كمال أبو ديب، ط6، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.
- أليكسي جورافسكي (1996)، الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد الجراد، منشورات عالم المعرفة، الكويت.
- بدوي عبد الرحمان (1993)، موسوعة المستشرقين، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت.
- بوحلوفة محمد الأمين (2017)، الكتابات الفرنسية حول التصوف السني بالجزائر من 1856 إلى 1960م – قراءة من خلال المجلة الإفريقية، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، العدد الخامس، مارس.
- تركي عبد الرحمان (2019)، موقف المستشرقين من التصوف الإسلامي، دراسة تحليلية نقدية في كتابات المستشرقين، مجلة دراسات إستشراقية، العدد 17.
- خرشي عبد الرحمان (2013)، فلسفة الاستشراق وأثرها في الصراع الحضاري، دار هومة، الجزائر.
- درويش أحمد (2004)، الاستشراق الفرنسي و الأدب العربي، دار غريب، القاهرة.
- رحموني عبد الجليل (2014)، اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية 1520 – 1830م، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم العلوم الانسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر.
- الرماني محمد حسن (2010)، الاستشراق والد راسات الإسلامية لدى الغربيين، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- ساسي سالم الحاج (2002)، نقد الخطاب الاستشراقي، دار المدار الإسلامي، بيروت.
- السباعي مصطفى (1979)، الاستشراق والمستشرقون، مالهم وما عليهم، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت.
- سعد الله أبو القاسم (2009)، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 - 1954، دار البصائر، الجزائر.
- سمايلوفيتش أحمد (1998)، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة.
- الشرقاوي محمد عبد الله (د.س)، الاستشراق – دراسة تحليلية تقويمية -، دار العلوم، القاهرة.

- شلالي عبد الوهاب (2006)، دور الطرق الصوفية في جهاد أهل تبسة خلال القرن 19م – دراسة تاريخية من خلال المؤلفات العسكرية الفرسية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تبسة، عدد تجريبي، أبريل.
- العقيقي نجيب (1964)، المستشرقون، ط4، دار المعارف، القاهرة.
- العياشي عبد الله (2015)، المدرسة الاستشراقية الفرنسية وجهودها في دراسة وحفظ المخطوط العربي، مجلة رفوف، مخبر المخطوطات الجزائرية في غرب إفريقيا، جامعة أدرار، العدد 6، مارس.
- مارسيل كاري (1987)، ذكريات الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي، المطبعة العلاوية، مستغانم، الجزائر.
- مالك بن نبي (2002)، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث (ضمن كتاب القضايا الكبرى)، دار الفكر، دمشق.
- معيريش محمد العربي (2003)، الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الآسيوية، دار الغرب الإسلامي، تونس.
- مناد إبراهيم (2005)، نبذة عن مسيرة الاستشراق، حوليات التراث، مجلة دورية محكمة تصدر عن كلية الآداب والفنون جامعة مستغانم، العدد 03، مارس.
- هلايلي حنيفي (2015)، إقليم قسنطينة في كتابات الجزائريين خلال الفترة الاستعمارية في ضوء المجلة الإفريقية، مجلة عصور الجديدة تصدر عن جامعة وهران، عدد خاص بقسنطينة، العدد 18.
- هلايلي حنيفي (2014)، المستشرقون الفرنسيون وإعادة بعث مخطوطات الجزائر وتنظيمها، المجلة التاريخية المغاربية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، العدد 154 – 155، فبراير.
- هلايلي حنيفي (2009)، ثنائية توظيف المصادر المحلية والأوروبية في كتابة تاريخ الجزائر أثناء العهد العثماني من خلال تجربتي دوفولكس ودي غرامون، مجلة الحوار المتوسطي، مخبر البحوث والدراسات الإستشراقية، جامعة سيدي بلعباس، العدد 1.
- يحياوي رزيقة (2014)، الاستشراق الفرنسي وجهوده في دراسة ونشر التراث الجزائري، مذكرة ماجستير تخصص تحقيق النصوص ونشرها، إشراف محمد حجازي، كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة.

المراجع باللغة الأجنبية

- Alfred Bel (1938), La religion musulmane en Berbérie. Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses.
- Corneille Trumelet (1892), L'Algérie légendaire : en pèlerinage çà et là aux tombeaux des principaux thaumaturges de l'Islam, Tell et Sahara.
- Edmond DOUTTE (2006), Magie et religion dans l'Afrique du Nord, Éditions Frontispice, (reprise de 1909), In-8°.
- Octave Depont et Xavier Coppolani (1897), les confrèries religieuses musulmanes, Adolphe, Jourdan, Alger.
- RINN Louis (1884), Marabout et Khouane, Etudes sur l'islam en Algérie, Jordan, Alger.
- RINN Louis (1882), Note sur l'instruction publique musulmane en Algérie, Imprimerie de l'association ouvrières, P. Fontana et compagnie, Alger.